

أخبار الملاح

== تمهيد ==

أيها القارئ

قد رأيت كيف كان عمر ابن أبي ربيعة يحب ، وكيف كان يسلك مذاهب النسيب ، فانظر الآن كيف كان يتصيد النساء ، وكيف كانت تعيش معشوقاته في ذلك الزمان

وإني لأرى من الخير أن أبين لك قبل كل شيء ، كيف فكرت في كتابة هذه الفصول ، فقد أخشى أن ترميني بالاسراف في التفتي بالحب ، والتحدث عن الجمال ، وإني بذلك لمتهم ظنين :

ألا فلتعلم أن الناس يكثرون في هذا العصر من التجني على الآداب العربية ، ويتهمونها بالفقر ، والعقم ، والجفاف ، والعجز عن مواتاة الغرائز ، والشهوات ، والعقول . وساعدهم على ترديد هذه النعمة المنكرة ما تقدمه الاداب الأجنبية كل يوم من الأدلة

البراهين على صلاحيتها لتغذية المشاعر ، والعواطف ، والأحاسيس
 وإن قليلاً من الانصاف لكافٍ للاقتناع بأن أدلة الاتهام
 نوية ، وأن الآداب العربية تبدو ضعيفة ضئيلة بجانب ذلك الدوى
 لهائل الذى تدمغنا به الآداب الغربية فى كل يوم . فهذه كتب
 لمختارات والمحفوظات والدرس التى يتناولها طلبة المدارس الابتدائية
 والثانوية وبعض المدارس العالية تُعدُّ من الكتب الجافة المقفرة التى
 نخطب على الأغلب ناحية واحدة من نواحي الطبع والادراك .

والطائفة المستنيرة من مفتشى اللغة العربية وأساتذتها تعلم
 ذلك حق العلم ، ولكنها تكتفى بالألم الصامت ترسله فى رخفية
 واستحياء ، كلما رأت انصراف الطلبة عن آداب لغتهم وفناءهم فى آداب
 الفرنسيين والانجليز . وفى الحق أن المادة التى تقدم لطلبة المدارس
 فى اللغة والأدب لا تُمِيع القلب ، ولا توقِظُ الحس ، ولا تثير الوجدان ،
 فهى فى الأكثر طائفة من العظات والأوصاف تتحدث عن معانٍ
 موضعية طوتها الأيام ، وأتت على رسومها الليالى ، يدرسها جماعة
 يعيشون فى ظلمات القرون الأولى غير شاعرين بما أبدع العقل فى هذا
 الجيل ، إن لم يكونوا أمساخاً خلفها عصر ما قبل التاريخ

ولقد نارت فى الصيف الماضى ضجة عن تقدُّم النثر وتحلُّف الشعر

وكان من رأى أستاذة الدكتور منه حسين أنت الشعر تقدم لأن
الكتاب يحيون حياة عقلية ، وأن الشعر تأخر لأن الشعراء كسالى
متبلدون . وعندى أن الشعر والشعر فى التأخر سواء ، ولا عبء هذه
الثروة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح ، فهى على وفرتها تكبر
وترديد لأفكار الفرنسيين والإنجليز والألمان ، وليس فيها شخصيات
ولا ذاتية تحدث القارئ عن حياة أولئك الكتاب . وإن شعراء
لأدب من كتابنا على أنفسهم . فاهم حين غفلوا عن أشعار الأمم
الأجنبية فرغوا لمواطنهم فصاغوها خالصة من المحاكاة والتقليد
بعض النظر عن متابعتهم لشعراء العرب فى المرمى والأسلوب
وانتهز هذه الفرصة لنعلم أنه لا حياة للأدب العربية مادام
كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة فى حرية وصراحة ،
ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة
وما دام شباننا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء
لا يرونها حين يرونها إلا قذرة دنسة فى بيوت الرِّجس والبغاء ،
فهيئات أن تنفتح أذهانهم ، أو تزهو قرائحهم ، أو تظهر على آثارهم الأدبية
مسحة التيقظ والتفكير . وتلك الرؤوس التى تتولى هداية الشرق
فى هذا العصر لا تدرك مع الأسف الشديد أن الصلة وثيقة بين

الأدب وبين الحياة ، إن لم يكن الأدب روح الحياة ، وأنه لا أمل في أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكتاب بعينين كل البعد عن المرأة التي تلون الوجود بشتى الألوان : فتُحِيلُهُ تارةً جحيماً يرمى بالفزع والهول ، ثم تعيدهُ حين تشاء جنة وارفة الظلال . وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا ، وحلمنا وجهاننا ، وطيشنا ورزائتنا ، وعقلنا وجنوننا ، ونحن نحصر على الطيبة والاستقامة في غير فهم ولا تبصر ، أسوةً بغُلف القلوب من سماسة الأديان وأدعياء الأخلاق ! إنه لا حياة للأدب إلا إذا شغلتنا بأنفسنا ، وحدثتنا عن مطامعنا ، وأهوائنا ، وعيوبنا ، ومظان الخير فينا ، وأرتنا كيف نُحب وكيف نُبغض ، ومتى نُقدِّم ، ومتى نُحجم ، وعلمتنا كيف نُجدِّد ، وكيف نلهو ، ومتى نقسو ، ومتى نلين . أما الأدب الذى يصدر عن رجل مشغوذ معتوه ، كلُّ إحساس في رأيه إثم ، وكل إدراك عنده فسوق ، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل ، ولا يسمو به خيال . وإنى لأخشى إن استمر أساتذة الأدب على الاكتفاء بلون احد يقدمونه إلى الطلبة في كل يوم : أخشى إن استمروا على ذلك ن يصارحهم الطلبة بالقطيعة والفراق !

وبعدُ فهل يسمح القارىء بأن تتجنب تلك الخطوة الموجهة ،
ونقبل على الأدب تمذوق أطايبه ، ونعرف تحلوه ومُرّه ، وحزونه
وسهُوله ، كما كان يفعل القدماء من رجال اللغة العربية ، وكما يفعل أهل
الغرب في أدبهم الحديث ؟

إذا سمح القارىء بذلك شرعنا في بيان تلك الناحية الطريفة من
حياة عمر بن أبي ربيعة : وهى تعيُّده للنساء ، وأخبار من كان يعرف
من الملاح . ومعاذ الله أن نريد بهذا البحث أن تشيع الفاحشة ، أو تحلوا
في أعين الناس مذاهب الفجور

إنما نريد أن نقبل عامدين على الجوانب المريحة التى تزخر بها
الأدب العربية حتى لا يسهل رميها بالفقر والجفاف ، كلما حلت هذه
الفرية لخصومها الجاهلين

نريد أن يكون لنا فى دراسة الشعراء العشاق نصيبٌ ضئيلٌ
من الحرية التى ينعم بها الكتاب الفرنسيون وهم يدرسون ميسيه ،
والكتاب الانجليز وهم يدرسون بيرون ، والكتاب الألمان وهم
يدرسون جوت .

وإننا لمكتفون فى الحديث عن معشوقات عمر بن أبي ربيعة بما
استباحه المؤلفون القدماء أمثال صاحب الأغاني ، وصاحب الامالى ،

وصاحب زهر الآداب ، ومن إليهم ممن ترجوا هذا الشاعر الغزل ،
وتحدثوا عن كانيهوى من ربات الرجال (١)

ولن يكون ذلك من اللهو الصِّرف ، فهو على طرافته رَجْدٌ في
جد ، إذ يكشف لنا عن نفسية ذلك الشاعر ، ويُرِينَا الفِتن التي
أرهفت إحساسه ، وألهبت روحه ، حتى أغرم بالحسن ، وحبس شعره
على الحسان .

«وإن كان من موجبات الحزن أن أنصرف ككتاب العرب عن تدوين
الحوادث اليومية كما يفعل أصحاب المذكرات في الغرب ، ولم يعد في
الإمكان تصوير معشوقات عمر بن أبي ربيعة كما صُوِّرت مثلاً خليلات
ألفريد دي ميسه ، فانا نحمد الله على أن وفق أبا الفرج الاصبهاني إلى
الإفاضة في أخبار تلك الحور العين ، إفاضة شائقة ممتعة ، لا ينقصها غير
الترتيب والتبويب ، إذ ذكرها في أغانيه مبددة مبعثرة في أثناء الحديث
عن كبار المغنين وفحول الشعراء



(١) أهم مرجع لترجمة عمر بن أبي ربيعة وترجمة معشوقاته هو كتاب الاغانى ، وعليه
عولنا في جمع أخباره مع أولئك الملاح. وكثيراً ما نكتفى بعبارة حين نراها وافية بما
ريد ، فلنسجل ذلك هنا اعترافاً بفضل ذلك المؤلف الذي قل نظيره بين القدماء
المحدثين . وليتنا نظفر بكتاب مثله يدون أخبار الكتاب والشعراء في العصر الحديث.

وقد يكون من الحزم أن نأفت نظر القارىء إلى أننا لانضمن صحة كل ما نقل عن ابن أبي ربيعة وممشوقاته من مختلف الاخبار فتلك شخصيات جذابة محبوبة ، لا يبعد أن يكون الرواة أضافوا اليها ما شاءت أهواء السامرين من طريف الاحاديث .

فلنقبل ما نقل اليينا في حياته ، مكتفين بهذه الملاحظة التي لم يكن منها بُدّ ، ولنترك للقارىء الحرية في أن يناقش ما شاء من تلك الاقاصيص ، ثم لنمض في الكلام عن أولئك الحسان ، راضين بما حكاه الواقع ، أو حاكه الخيال

